عنايةُ الله تعالى بالنبيّ منذ صغره

صلى الله عليه وآله سلم

الإمام الشيخ

عبد الله سراج الدين

رحمه الله تعالى ورضي عنه

هذا البحث مقتبس من كتاب
(سيدنا محمد رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم)
من الصفحة 476 حتى الصفحة 484

للشيخ الإمام
عبد الله سراج الدين الحسيني
بناءً على توجيهات ولده
المهندس الشيخ
محمد محيي الدين سراج الدين
رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

ويمكنك تحميل هذه الأبحاث القيّمة
وتحميل جميع كتب الشيخ الإمام
من موقعه الرسمي والوحيد
WWW.SRAJALDEN.COM
قسم: كتب الإمام
تحميل كتب الإمام وتحميل أبحاث مختارة

مدير الموقع:
الشيخ عبد الله محمد محيي الدين سراج الدين

عناية الله تعالى بالنبي ﷺ منذ صغره

إن عناية الله تعالى قد حَفَّتْ رسول الله ﷺ في جميع أطواره الخلْقية ، وجميع تقلباته وأحواله منذ صغره .

فقد توفي والده عبد الله بعدما تمَّ له من حمله الشريف شهران ، على أشهر الأقوال .

وقيل : بعدما تمَّ له سبعة أشهر من الحمل .

وقيل : توفي والده وهو في المهد .

---

(١) انظر جميع ذلك في (صحيح البخاري) و (شرحه) لابن حجر .

فقيل : ابن شهرين ، وقيل : ابن سبعة أشهر ، وقيل : ابن تسعة أشهر ، والراجح المشهور هو القول الأول ـ يعني : أنه ﷺ توفي والده وهو حمل .

والحجة له ما جاء في (المستدرك) عن قيس بن مَخْرَمة قال : (توفي أبو النبي ﷺ وأمُّه حُبلى به) وقال الحاكم : على شرط مسلم وقد أقره الذهبي (١) .

فكان ﷺ مع أمه آمنة ، وهيَّأ الله تعالى له جده عبد المطلب يكفله ويقوم بحاجته وشأنه ، مع الحفاوة والتكريم .

فنشأ ﷺ في إيواء الله تعالى وكلاءته وحفظه ورعايته ، يُنبته الله تعالى نباتاً حسناً ، لما يريد به من كرامته ، ورفعة مكانته ﷺ بالنبوة والرسالة .

ولما بلغ ﷺ ست (٢) سنين توفيت أمه آمنة بنت وهب بالأبواء ، بين مكة والمدينة ، وقيل : بشعب أبي ذئب بالحجون ـ جبل بمعلاة مكة (٣) ـ .

روى ابن سعد عن ابن عباس ، وعن الزهري ، وعن عاصم بن

---

(١) نقل ذلك الحافظ ابن كثير ، والإمام العسقلاني ، والحافظ الزرقاني ، وغيرهم .

(٢) على أرجح الأقوال ، وقيل : أربع سنين ، وقيل أكثر .

(٣) انظر (شرح المواهب) .

عمرو بن قتادة ، دخل حديث بعضهم في حديث بعض ، قالوا [١] : لما بلغ رسول الله ﷺ ست سنين خرجتْ به أمه إلى أخواله بني عديٍّ بن النجار بالمدينة تزورهم ، ومعه أم أيمن ، فنزلت به دار التابعة ، فأقامت به عندهم شهراً ـ فكان ﷺ يذكر أموراً كانت في مُقامه ذلك .

ونظر ﷺ إلى الدار وهو بالمدينة بعد الهجرة ، فقال : « ها هنا نزلت بي أمي ، وأحسنتُ العَوْم ـ أي : السباحة ـ في بئر بني عديٍّ بن النجار ، وكان قوم من اليهود يختلفون ينظرون إليَّ ، قالت أم أيمن : فسمعت أحدهم يقول : هو نبيُّ هذه الأمة ، وهذه ـ المدينة ـ دار هجرته ، فوعَيْتُ ذلك كلَّه من كلامهم » ثم رجعتْ به أمه إلى مكة ، فلما كانت بالأبواء توفيت . اهـ .

وفي رواية أبي نعيم ، قال ﷺ : « فنظر إليَّ رجل من اليهود ، فقال : يا غلام ما اسمكَ ؟ قلت : أحمد .

ونظر إلى ظهري فأسمعُه يقول : هذا نبيُّ هذه الأمَّة ، ثم راح إلى إخوانه من اليهود فأخبرهم ، فأخبروا أمي ، فخافتْ عليَّ ، فخرجنا من المدينة . . » [٢] الحديث .

فكانت أم أيمن ـ واسمها بركة الحبشية ـ هي حاضنةً للنبي ﷺ بعد وفاة أمه ، وهي التي أعتقها أبو المصطفى ، وقيل : بل هو ﷺ أعتقها ،

---

(١) قال الزرقاني : أرسله الثلاثة إلا أن مرسل ابن عباس في حكم الموصول ، لأنه مرسل صحابي . اهـ .

(٢) انظر (البداية) ٢ : ٢٧٩ ، و (المواهب وشرحها) .

وقد أسلمت ، وهاجرت الهجرتين ، ومناقبها كثيرة رضي الله عنها .

قال ابن أم حنتمة : وكان ﷺ يقول : « أمُّ أيمن : أمي بعد أمي » .

وقال الحافظ في (الإصابة) : قال ابن سعد : أخبرنا أبو أمامة ، عن جرير بن حازم ، قال سمعت عثمان بن القاسم يحدِّث ، قال : لما هاجرتْ أم أيمن ـ إلى المدينة ـ أمست بالمنصرَف دون الرَّوْحاء ـ أي : أقبل عليها المساء وهي في موضع بين الحرمين ـ فعطشت وليس معها ماء وهي صائمة ، فأجهدها العطش ، فدُلِّيَ عليها من السماء دلو من ماء برِشاء أبيض ، فأخذتْه فشربته حتى رويت ، فكانت تقول : ما أصابني بعد ذلك عطش ، ولقد تعرّضتُ للصوم في الهواجر ، فما عطشت بعد تلك الشربة .

وفي رواية ابن السكن : خرجت أم أيمن مهاجرةً من مكة إلى المدينة ، وهي ماشية ليس معها زاد ، قالت : فلما غابت الشمس ، إذا إناء معلَّق عند رأسي ، قالت : ولقد كنت بعد ذلك أصوم في اليوم الحار ، ثم أطوف في الشمس كي أعطش ، فما عطشت بعد . اهـ .

قال ابن إسحاق : وكان رسول الله ﷺ مع جده عبد المطلب ـ بعد وفاة أمه ـ فكان يوضَع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة ، وكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك ، حتى يخرج إليهم ، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له ، فكان رسول الله ﷺ يأتي حتى يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ليؤخِّروه عنه ، فيقول لهم عبد المطلب : دعوا ابني ، فو الله إن له

لشأناً ، ثم يُجلسه معه على فراشه ، ويمسح ظهره بيده ، وَيسرُّه ما يراه يصنع ﷺ . [1] اهـ .

فلما حضرت عبدَالمطلب الوفاةُ أوصى أبا طالب بحفظ رسول الله ﷺ وحياطته ، وتوفي عبد المطلب وقد بلغ ﷺ ثمان سنين .

فكان أبو طالب يحوط رسول الله ﷺ ويكرمه ، وقد أسند الواقدي وغيره عن ابن عباس قال : كان أبو طالب يُحبّ رسول الله ﷺ حباً شديداً لا يحبه ولده ، وكان لا ينام إلا إلى جنبه ، ويخرج فيخرج معه ، وصُبَّ به أبو طالب صَبابة لم يصب مثلها بشيء قط .

قال : وكان أبو طالب يخصُّه بالطعام ، وكان إذا أكل عيال أبي طالب جميعاً أو فرادى لم يشبعوا ، وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا ، فكان ـ أبو طالب ـ إذا أراد أن يغذِّيهم قال ـ أبو طالب ـ: كما أنتم ـ أي : لا تأكلوا ـ حتى يأتي ولدي محمد ، فيأتي رسول الله ﷺ فيأكل معهم ، فكانوا يُفضِلون من طعامهم .

وإذا كان لبناً شرب أولَهم ثم يشربون فيروون كلُّهم من قعب ـ إناءٍ ـ واحد ، فيقول أبو طالب : إنك ـ يا محمد ـ لمبارك .

وروى أبو نعيم وابن إسحاق وغيرهما ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان بنو أبي طالب يُصبحون رُمْصاً شُعْثاً ، ويصبح محمد ﷺ صَقيلاً ، دَهيناً ، كحيلاً ، وكان أبو طالب يحبه حباً شديداً . اهـ[2] .

---

(١) انظر (البداية) ٢ : ٢٨١

(٢) انظر جميع ذلك في (البداية) ٢ : ٢٨٢ و (شرح المواهب) ١ : ١٨٩

وهكذا نشأ ﷺ في بيت عزٍ وشرفٍ ، عزيزاً مكرماً ، معظَّماً ، محفوفاً بعناية الله تعالى ، ومطيَّباً بعنايته سبحانه .

وقد ذكر الله تعالى لنبيه ﷺ نعمته عليه ، وإيواءه ، وعنايته به منذ صغره في جملة صنوف الإفضال والإكرام ، الذي امتنّ الله تعالى به عليه .

فقال سبحانه :

﴿ والضحى . والليل إذا سَجَى . ما ودَّعكَ ربك وما قَلَى : وللآخرةُ خيرٌ لك من الأولى . ولَسوف يعطيك ربك فترضى . ألم يجدْكَ يتمياً فآوى ؟ وَوجدكَ ضالاً فهدى ؟ ووجدكَ عائلاً فأغنى ؟ فأما اليتيمَ فلا تقهر . وأما السائلَ فلا تنهر . وأما بنعمة ربك فحدِّث ﴾ .

فإنه سبحانه ذكر في هذه السورة وجوهاً من عنايته برسوله ﷺ وتولِّيه إياه في جميع أموره ، وتعهّده إياه ، وحسن تربيته ، ومواصلة بِرّه ﷺ وإكرامه ، أبدَ الآباد بلا انقطاع ولا نفاد .

فأقسم سبحانه بالضحى الذي يسطع فيه نور الشمس ، وينتشر فيه ضياؤها وبهاؤها ، وبالليل إذا سجى ، أي : إذا أظلم وامتدَّ سواده ، وفي ذلك تنبيه لكل ذي بصر إلى الفرق الكبير بينهما ، أي : بين رونق الضحى وضيائه ، وبين ظلام الليل وسواده ، فهذا هو القَسَم ، والمقسَمُ عليه : هو عناية الله تعالى برسوله ﷺ وإكرامه إياه ، وإفضاله عليه ، وذلك كله يتضمَّن تصديقه سبحانه وتأييده ، وشهادته أن سيدنا محمداً هو رسول الله حقاً .

ووجه المناسبة بين القسَم والمقسَم عليه : هو تنبيه العقلاء إلى الفرق الكبير بين ما كان عليه الناس في الجاهلية الجهلاء ، والضلالة الظلماء ، وبين النور الساطع والضياء اللامع ، الذي جاء به الرسول الكريم ﷺ ، وأنّ ذلك لايخفى على كل ذي عقل وروِيَّة ، كما لا يخفى على ذوي الأبصار الحسيّة الفرقُ بين الضحى وبين الليل إذا سجى .

وكما أن رحمته سبحانه اقتضت أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سرمداً ، بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعايشهم ، فكذلك اقتضت رحمته وحكمته أن لا يترك عباده في ظلمة الجهل وتيه الغيّ والضلال ، بل يهديهم بأنوار النبوة والرسالة المحمدية ، إلى ما فيه صلاح دنياهم وأخراهم ، وإلى ما فيه سعادتهم في الأولى والآخرة .

قال تعالى : ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يَهدي به الله مَن اتبع رضوانه سُبُل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور باذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ .

ثم قال سبحانه : ﴿ ما ودَّعك ربك وما قلى ﴾ فنفى سبحانه أن يكون ودّع نبيه وحبيبه ، أي : تركه ، ونفى أن يكون قلاه ، أي : أبغضه ، فإنه سبحانه كيف يتركه وقد عناه بعنايته الخاصة منذ بدء الأمر ، وكيف يَقليه ـ أي : كيف يُبغضه ـ وقد اتخذه حبيبه فهو ﷺ غيرُ متروك ولا مَقليّ ، بل هو في عناية الله تعالى ، كما قال:﴿ فإنك بأعيُننا ﴾ وهو ﷺ حبيب الله الأكرم ، كما قال ﷺ فيما رواه الدارمي وأحمد والترمذي : ﴿ ألا وأنا حبيبُ الله ولا فخرَ ﴾ .

ثم قال سبحانه : ﴿ وللآخرةُ خيرٌ لك من الأولى ﴾ وفي هذا تعميم لجميع أحواله ﷺ ، وأنه في الترقي الدائم ، وأن كل حالة يرقى لها ، هي خير له من الحال التي قبلها أبداً واستمراراً ، كما أن الدار الآخرة خير له ﷺ مما قبلها .

ثم قال سبحانه : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ وفي هذا وعد محتَّم من الله تعالى ، بما تقرُّ به عينه ﷺ ، وتفرح به نفسه ، أن يُعطيَه حتى يرضى ، وفي ذلك من الفضل الكبير ، والخير الكثير ما لا يعلمه إلا الله تعالى ، **ويدخل في جملة ذلك العطاءِ الإلـهي** : كثرةُ أتباعه فوق أتباع كل نبي ، ودخول الناس في دينه أفواجاً ، ورفع ذكره ، وإعلاء كلمته ، والنصر على أعدائه بإلْقاء الرعب في قلوبهم ، وإظهار دينه على الأديان ، وظهور سلطانه ، وسطوع برهانه ، وإعطاؤه الحوض والكوثر والمقام المحمود ، وما في ذلك من الشفاعة العظمى والشفاعات الخاصة ، ومقام الوسيلة والفضيلة ، إلى ما هنالك مما أعدَّ الله تعالى له في الدار الآخرة من المقامات العالية ، والمرتبة الزلفى ، مما لا يحيط بعلمه إلا الله تعالى .

ثم ذكر سبحانه عنايته بحبيبه ﷺ منذ صغر سنِّه ، وتعهُّده إياه ، ورعايته له ـ تنبيهاً إلى أن الله تعالى الذي تولَّاه بعنايته منذ صغره ، وأتحفه بنعمه سبحانه ، سوف يواصل إليه بِرّه وإكرامه ، ويُديم عليه فضله وإنعامه ، ويُحقِّق له ما وعده به ، ويحيطه بعنايته ويكلأه برعايته أبد الأبد ، فقال سبحانه : ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ ؟ وذلك أن أباه عبد الله توفي وهو ﷺ حمل في بطن أمه ، وقيل بعد ولادته ﷺ ، ثم

توفيت أمه آمنة بنت وهب وله من العمر ستُّ سنين ، ثم جعله سبحانه في كفالة جده عبد المطلب ، إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين ، فكفله عمه أبو طالب ، ثم لم يزل ﷺ يتربّى وينشأ في عناية من الله تعالى ، مُحاطاً محفوفاً محفوظاً موقَّراً ، إلى أن أكرمه الله تعالى بالنبوة والرسالة ﷺ .

﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ إعلم أن الضلال قد يُراد منه ضلال المعصية ، وهو الضلال عن الحق والخير والصلاح ، وقد يطلق على غير ذلك من المعاني المختلفة ، حسب المناسبة التي جاء فيها ، كما سيتضح معنا قريباً إن شاء الله تعالى .

فأما الضلال عن الحق والصلاح فهو غير مراد في هذه الآية قطعاً ، لأن الله تعالى نفاه عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ والنجم إذا هوى . ما ضَلَّ صاحبكم وما غوى ﴾ فنفى سبحانه عن رسول الله ﷺ الضلالة التي هي ضدُّ الهدى ، والغواية التي هي ضد الرشاد ، ونزّهه عن ذلك بعد التأكيد بالقسم ، وذلك يتضمن شهادة الله تعالى لنبيه ﷺ بالهدى والرشاد في علمه وعمله ، وقاله وحاله ﷺ ، فهو ﷺ ليس بضالٍّ ، بل هو على هدى وعلمٍ بالحق ، وليس بغاوٍ بل هو راشد في علمه وقصده ، لم يلتفت لشيء سوى الهدى والحق .

فإنَّ الضالَّ هو الجاهل الذي يمشي على غير علم ، فلا يهتدي السبيل ، والغاوي هو الذي علم الحق فكتمه وقصد غيره .

فالهدى والرشاد هما أصل الكمال في الإنسان .